

«اجتماع الطيور» رحلة وجودية على خطى صوفي الشرق

مسرحية فرنسية مقتبسة من «منطق الطير» لفريد الدين العطار



مسرحية مقتبسة من أشهر النصوص الصوفية العربية



جون كلود كاريار نجح وأخفق في أن عند اقتباس «منطق الطير»

تحريم النساء على كاهن مسيحي، إلخ. لكن لعله أراد نشر نص العطار بعيدا عن الظاهرة الدينية والثقافية وعن الخاصية اللغوية.

لغة المسرح عالمية ويمكنها أن تقيم علاقات بين البشر في كل الثقافات. فأغلب الأعمال الثقافية يمكن لها أن تسافر من خلال المسرح، وهو أكثر قدرة على الاقتباس من الكتب. فضلا عن ذلك هناك تأثير متبادل بين الحضارات والآداب الغربية والشرقية واضح جلي. ففي «اجتماع الطيور» يحدث كاريار خليطا من القيم الدرامية للأدب الفارسي القديم والمسرح المعاصر.

وقد عدت مقطوعات من «منطق الطير» في عدة مسارح سابقا، لكن كاريار أول من استخدم القيم الدرامية في «منطق الطير» وأدرك الإكراهات الثقافية واللغوية ليخرج لنا عملا متقدرا بالاشتراك مع المخرج المسرحي بيتر بروك. إن الأسلوب الجامع للمسرحية ومنطق الطير متقارب، فمن طريق خلق لعبة الحكايات المرتبطة بالحكاية الأصلية، وجد كاريار طريقة لإدماج أثر العطار في المسرح. وهناك حكايات قصيرة مجردة من القيم الدرامية وقع حذفها أو إعادة هيكلتها. فجون كلود كاريار أثبت أيضا تمكنه من تقنيات الرواية الشرقية وتضمن الحكايات بضمها إلى مسرحيته في شكل المسرح داخل المسرح.

العطار بشكل مذهل: قال له أحدكم: تواض يا شيخني فسيزهبد عنك هذا الوسواس. قال الشيخ: أخرس تواضات مئات المرات بدمي ودمي منذ أن طلع القمر. فقال له آخر: سبّح سيساعدك الشيخ. فاجابه: لقد رميتها ووضعتم الزنار المسيحي بدلا منها.

إذا ما أردنا ترجمة هذه المحاوره بين الشيخ ومريديه سنكون مجبرين على قلب الأشكال ونخسر بذلك جمال الأبيات الشعرية. مع ذلك فمحاورات حكاية الشيخ صنعان لها ميزة مسووحة. وحتى إن ترجمناها مجردة فيمكن أن نحافظ على روحها من وراء شكلها البسيط.

وتختلف العناصر الثقافية والنماذج اللاهوتية للمجتمعات البشرية، فحضورها في آثار بلد ما يؤسس عائقا يمنع من اقتباسها في ثقافات أخرى، لأنها تحمل خصائص مرجعية بيئتها الثقافية. هذه الحقيقة منعت كاريار من استعمال بعض حكايات منطق الطير مثل حكاية الشيخ صنعان، خاصة عندما وضعت الفتاة المسيحية أربعة شروط للشيخ ليصبح معشوقها. فلو أن كاريار استعمل هذه الحكاية هل كانت ستفهم من قبل المسيحي باعتبار أن بعض تلك الشروط ستكون بلا معنى لديه؟ كان بإمكان كاريار أن يجد مرادفات ثقافية فرنسية مسيحية مثل تعويض حرق القرآن بحرق الإنجيل، أو إبراز

أن تصوير معشوقتي إليك شروط: اعبد الصنم ثم احرق القرآن واشرب الخمر، أريد أن أراك تملأ. وفي النهاية احرق إيمانك بالنار.

وافق الشيخ العاشق، وحقق شروط معشوقته. ثم تخبره الفتاة المسيحية أنها تريد مهرا غالبا، فتقول «أيها الشيخ العاشق مهري ثمين، لتملكني يجب أن تدفع الثمن ذهبيا، فهل تملكه؟»، يجيب الشيخ «لا». فتقول «إن أرجع من حيث أتيت».

انزوى مريدو الشيخ مدة أربعين يوما يدعون لشيخهم، حينها ظهر الرسول في منام أحد أشد أتباع الشيخ طاعة وأخبره أنه سينجو من فخ الفتاة المسيحية، وقال له «أنت الذي ناديتني يا رجل العلم الغرير، اذهب دون خوف، فانت الآن حُرٌّ، قد حررت رغبتك وقوة عشقك لشيخك من قيده».

وتحررت الفتاة المسيحية في نهاية الحكاية، واعتنقت الإسلام وانتهت الحكاية بموتها حيا في الله، حيث قالت للشيخ «حبيبي نقد صبري، لا اتحمل البعد عنه، أفارق هذا العالم الذي لا يطاق، الموت ينتظرنني وما بيدي حيلة، معشوقتك تفارقك، سامحها ودعها تلاق مصيرها».

هذه الحكاية التي تحل مساحه كبيرة من منظومة «منطق الطير»، لم يستعدها كاريار لأنه لم يكن بالإمكان اقتباسها في مسرحيته. وهذا الحذف هو متواتر في الاقتباس الأدبي في الثقافات المختلفة. وهذه بعض الأسباب التي جعلت كاريار يتجاهل هذه الحكاية.

حيث إن بعض حكايات «منطق الطير» هي خاصة بالمنطقة والثقافة وعصر الشاعر.

خصائص ثقافية ولاهوتية

أسلوبيا يمكن أحد مواطن الجمال في «منطق الطير» في الوصف الواقعي والشعري في أن، والذي ينتهجه العطار في كامل المنظومة، مثل وصفه لجمال الفتاة المسيحية «إلهي هي فجر صباح جميل، تحت هديها المقوس كلال القمر كانت نظرتها تأسر السروح دون رجعة. وكل من يتأملها يتوه ممرقا من عشقه ويفوح شعرها بالمسك المعطر فيعطر الريح الزرقاء».

منعت الإكراهات اللغوية كاريار من تضمين هذه الحكاية في مسرحيته. فهذه الأوصاف مفهومة لدى الفارسي الذي يعرف الثقافة ومرجعياتها الجمالية والشعرية التي طرحها العطار. فالعطار مثلا جعل ربح سبا تتل من عطر المسك الذي يفوح من شعر الفتاة المسيحية. فترجمة هذا البيت لا يمكن أن تتحقق ولا يمكن للكاتب أن ينقل هذا النفس الشعري العاشق والمعنى الحقيقي لربح سبا بالفارسية. أحد أجمل مقاطع حكاية الشيخ صنعان هي حوارها مع مريديه بروياها

التالية: سال مريد شيخه يوما «كلمني عن الله وعن حضوره ووجوده». فاجابه الشيخ «اغسل وجهك أولا، حينها يمكن أن أجيبك».

كيف مسرحي فرنسي من ثقافة مختلفة، أن يترجم ويكون وفي للنص وإشارات خاصة بالتصوف الفارسي يعود إلى قرون عديدة. ففي المثال المذكور، نجد فكرة «الحضور» بالمعنى الصوفي و«الطهارة» بالمعنى الإسلامي الشرعي. ويوضح هذا المثال أن كاريار لا يستطيع ترجمة كل حكايات منطق الطير في مسرحيته.

كما حذف عناصر أخرى من المسرحية لخلوها من العناصر الدرامية (شخصيات، مواضيع، حوارات) وهي عادة مقاطع قصيرة وعميقة مغناة ليتم الإلحاح على مضمونها ولنا المثال التالي:

«في إحدى الليالي كان عاشق طوس الذي يعرف كل الأسرار، يخاطب أحد مريديه فيقول له: تحرر! احترق! استهلك جسدا وقلبك حتى لا يبقى منك سوى شعرة، سيزرعك الصديق عندئذ في شعره الأملناهي، هكذا يفعل بمن يسلمون أرواحهم لجنون الحن المطلق».

يفتقر هذا المقطع إلى الإلماحات السردية، فهدف العطار كان العودة إلى مفهوم صوفي عاجله في شكل حكمة على لسان زاهد.

لدى مسرحية كاريار القدرة على جذب المشاهدين في عدة بلدان. ومع ذلك فإن هذا الأثر يحتوي على نقاط ضعف مقارنة بالنص الأصلي. وبعض نقاط الضعف ليست نتيجة إهمال من كاريار، لكنها مقتضيات اللغة والاختلاف الثقافي ومتطلبات العمل المسرحي.

ونقدّم أمثلة على ذلك. فمن أروع حكايات منطق الطير حكاية الشيخ صنعان. ورغم أن هذه الحكاية لم تكن مبتكرة من العطار، فقد تمكّن بطريقة فنية من استثمار كل الحكايات السابقة ودمجها في حكاية. إن الشيخ صنعان، متصوّف ناسك زاهد لأربعمئة مريد:

كان في قديم الزمان في صنعاء شيخ يعتبره الجميع معلما مثاليا، قضى خمسين عاما في الزهد - ليليل نهار - مع مريديه الأربعة في حضان الله. حلم الشيخ صنعان يوما أنه سافر إلى الشرق المسيحي، حلم أنه سافر حتى اليونان ونزل في مدينة يجهل عنها كل شيء وعشق فتاة إلى حدّ الافتتان. فقال ذلك المعلم في نفسه: وا خلجي.

وفي النهاية تحقّق الحلم إذ عشق فتاة مسيحية. وعندما أراحت الخمار عن وجهها، وجد الشيخ نفسه مقيدا من الرأس إلى القدم بنيران عشقه، فترجأها، لكنها اشتدّت عليه أربعة شروط، تقول «إذا أردت

يشغل الكثير من المسرحيين على الاقتباس من نصوص عالمية أو محلية، وحتى من خارج المسرح من روايات وقصائد وحكايات شعبية وغيرها، ويطوعونها لتناسب الخشبة. الاقتباس إن لا يعني الوفاء الكلي للنص الأصلي. حيث يمكن التغيير في بعض تفاصيله. لكن ذلك قد يضر بروحه ويفسد رسالته.

في هذا الفصل أن يسلم الضوء فقط على الحكاية الأساسية لـ «منطق الطير»، وهي لقاء الطيور بالسيمرغ.

في الواقع، يضع كاريار مثل العطار ذروة الحكاية في هذا الفصل، ويتلاعب العطار أيضا بالكلمات فكلمة سيمرغ تعني أيضا الثلاثين طائرا بالفارسية، لكن هذا التلاعب لا يمكن التعبير عنه باللغة الفرنسية.

إن المشترك بين الأثرين هو قصة حكاية الطيور المسافرة نحو ملكها السيبرغ بقيادة الهدهد. لكن توجد اختلافات بينهما. منها نقاط البداية وطريقة تضمين الحكايات في ثنايا النص، والنهايات. وقد كانت المسرحية تفرض هذه الاختلافات.

الفارق بين البداية والنهاية

في حكاية العطار تتمثل البنية العامة للأثر في ما يلي:

تقديم الطيور، اجتماع الطيور، حكاية السيبرغ وأعداء الطيور، أسئلة الطيور للهدهد، حرج الطيور وأعدائها لتعدل عن السفر ثم إجابة الهدهد، عبور الأودية السبعة، وقصر السيبرغ.

وفي مسرحية كاريار، وبعد تجمع الطيور يصف الهدهد السيبرغ. ثم يطرح كل طير سؤالا، أو يشرح أسباب اعتذاره عن السفر. فمن ناحية يكتشف المخاطب في هذه الحجج، شخصية كل طير، وفي جزء آخر يتم ذكر الأعداء المتبقية للطيور وأجوبة الهدهد. وبعد هذا التبادل تبدأ الطيور سفرها في الصحراء الامتناحية، وعندما قطعت الأودية السبعة ظهرت لها أرواحها كما في صورة المراهة.

في بداية «منطق الطير» يتم تقديم الطيور وفق مقاربتين: مجموعة من خمسة مقاطع ثنائية تصف خصائص الطير الظاهرة والخرافية. (ما عدا الصقر الذي كتب مديحه على حدة في عشرة أبيات) ورسم كل طير في شكل رمزي. كما تمكّن الرسم من النوار، من العودة إلى ذكر كل طير وخصائصه الجسدية وأعدائه وتعلاته. أما في «اجتماع الطيور» فيتحدّد نوعا الوصف ويكتشف المتفرج الخصائص والرغبة الدفينة لكل طير، من خلال الأسئلة التي طرحها الهدهد.

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

مريم الذري
باحثة تونسية

تهب وفرة الحكايات الأدبية للكاتب المسرحي اختيارا موسعا للمواضيع التي يمكنه إعادة إنشائها لغايات مسرحية وهدفه صنع مشهد مسرحي. ويمكن أن نذكر في هذا المجال «اجتماع الطيور» العمل المسرحي للفرنسي جون كلود كاريار الذي رحل الشهر الماضي عن عالمنا، والذي استوحاه من كتاب «منطق الطير» لفريد الدين العطار، وتمكن من استثمار الملامح المسرحية للأدب الفارسي القديم في مسرحيته المعاصرة.

حظي اقتباس أعمال التراث الأدبي القديم في ثقافات أخرى غير الثقافة الإيرانية، بنجاح، جعلها توحّد الماضي البعيد بالراهن. وإلى حدود هذه الساعة لم ير النور أي اقتباس لروائع الأدب الفارسي في إيران اقتباسا وفيها دون تصرّف. فمن المؤسف أن هذه الأعمال التي أنارت الآداب الغربية، أعيد نقلها في إيران دون أيّ تمسّح إبداعي لإعادة الخلق والاقتباس.

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».

ويكمن اعتماد اقتباسين مثلا هما «الخيماياني» وهو رواية فلسفية لباولو كويلو تم اقتباسها من الحكاية العربية للمولوي، ومسرحية جون كلود كاريار «اجتماع الطيور».